أسباب أخطاء المستشرقين في تفسير القرآن الكريم –دراسة تحليلية

The reasons for the errors of orientalists in the interpretation of the Holy Qur'an an analytical study

د. عثمان بن حليمة[1]

جامعة ابن خلدون تيارت

benhalima1988@gmial.com

تاريخ الوصول 2021/02/14 القبول 2021/06/18 النشر على الخط 2021/10/30
Received 14/02/2021 Accepted 18/06/2021 Published online 30/10/2021

ملخص:

لقد أثيرت تساؤلات عديدة حول جهود المستشرقين في دراسة القرآن الكريم وتفسيره، لماذا يخطئون ويجانبون الصواب والحقيقة غالبا؟، ولماذا يقدّمون لنا إنتاجا علميا ناقصا وركيكا عندما يتعلق الأمر بتفسير الذكر الحكيم؟ وما هي الأسباب التي توقع المستشرقين في الأخطاء أثناء دراسة القرآن الكريم وتفسيره؟

يهدف المقال إلى البحث عن الأسباب التي توقع المستشرقين غالبا في الأخطاء عند دراسة القرآن الكريم وتفسيره، كما سعى أيضا إلى ذكر أكثر النقاط التي يثيرونها ويناقشونها في تفسير القرآن الكريم ومآلات ذلك، وقد اعتمدت في دراسة هذا البحث على المنهج التحليلي، ومن النتائج التي أسفر البحث عنها:

1–القرآن الكريم لا يفسر إلا في ضوء قواعد التفسير المعروفة.

2– بالرغم من تعدد المناهج الغربية التي سعى أصحابها إلى تفسير القرآن الكريم إلا أنه لم يكتب لأي تفسير كامل وواضح وشامل الظهور إلى النور، وهذا دليل على عجز تلك المناهج عن تفسير القرآن الكريم.

3– الخلفيات الاعتقادية والافتقار إلى الموضوعية من أهم الأسباب التي جنت على تفسير القرآن الكريم في المدارس الاستشراقية.

الكلمات المفتاحية: الأخطاء في التفسير، المستشرقون، القرآن الكريم، قواعد التفسير، المناهج الوضعية.

Abstract:

So many questions have been raised about the efforts done by western scholars in studying and interpreting the Holy Qur'an. Why do they often mistaken and neglect the truth, and why do they provide us with a scientifically incomplete and ruddy production when it comes to the interpretation of the Holy Qur'an? So ,What are the reasons that make them mistaken while studying and interpreting the Holy Qur'an? The present article aims at raising and revealing the reasons that lead the western scholars to mistakes when studying and interpreting the Holy Qur'an. It also seeks to enlight the most points that they raise and discuss in the interpretation of the Holy Qur'an and its consequences .In this research I used a deductive method and here are some of the obtained results : 1-The Holy Quran shouldn't be interpreted except there are interpretation standards and norms 2-In spite the fact that there are numerous approaches that tried to interpret The Holy Quran ,nonetheless, no one could succeed and that shows how incapable are all those approaches. 3-background belifs and the lack of objectivity are among the most important reasons for interpreting the Holy Qur'an in western schools.

Keywords: Errors in interpretation, orientalists, the Noble Qur'an, rules of interpretation, positive approaches

---

[1] – المؤلّف المرسل: عثمان بن حليمة البريد الإلكتروني: benhalima1988@gmial.com

مقدمة:

البحوث العلمية الاستشراقية غزيرة في حقل العلوم الشرعية بمختلف مجالاتها؛ لكن تُعْوِزُها الشفافية والمصداقية في غالب الأحيان، مما أثار حفيظة علماء التّراث، فهبوا لنجدة إرثهم الديني والعربي وتخليصه من براثن الاستشراق، فكشفوا مكامن الفساد، وفضحوا آليات التحريف والتضليل، وبيّنوا الأسباب والدوافع الكامنة وراء هذا الكم الهائل من الأخطاء في تفسير القرآن الكريم، والحقيقة أنه قد تحدث في هذا الموضوع عدد من الباحثين من قبلي، منهم الدكتور محمد طالب الحسيني الذي ذكر عدة أسباب مهمة من أهمها: القصور في فهم أساليب اللغة، وعدم الموضوعية في التفسير، وقياس القرآن على الكتب السماوية، ودعاوى التجديد، وقد ذكرت بعضا مما ذكره هذا الباحث من باب التأكيد والزيادة عليه؛ ولكن هناك أسباب أخرى لم يتطرق إليها، لذلك أحببت أن أقف على هذه الأسباب التي أجهضت كثيرا من محاولات المستشرقين في التفسير، لذا كانت إشكالية البحث: ما الأسباب التي وراء أخطاء المستشرقين في تفسير القرآن الكريم؟ وما النتائج التي تمخضت عن ذلك؟ وللإجابة على هذا السؤال أناقش أهم الأسباب في ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: هشاشة قاعدة الثقافة العربية عند المستشرقين.

المبحث الثاني: غياب الموضوعية العلمية، والتشكيك المستمر.

المبحث الثالث: دعاوى التجديد في ظل المناهج الغربية الحديثة.

المبحث الأول: هشاشة قاعدة الثقافة العربية عند المستشرقين.

المقصود به القصور الحاد في فهم لغة القرآن، والواقع الاجتماعي الذي نزل فيه، فالمعهود العربي أصل من أصول تفسير القرآن الكريم، وقاعدة أساسية لا يُفسَّر القرآن إلا في ضوئها، والقصور الذي وقع عند المستشرقين في فهم لغة القرآن، كان منشؤه أمران خطيران، **أحدهما**: إغفال المعهود اللغوي، وأعني بذلك لغة القرآن نفسها، **وثانيهما**: الظرف الاجتماعي الذي نزل فيه القرآن الكريم، وهو ما يُعبَّر عنه في علوم القرآن بمصطلح (المعهود الفعلي) أو (عادات وتقاليد وعرف العرب) الذين نزل القرآن في زمنهم، وتنضوي إليه أسباب النزول.

أولا: القصور في الإلمام باللغة العربية:

إن اللغة التي نشأ عليها المستشرقون في بلدانهم كانت عائقا كبيرا أمام فهم تراث المسلمين، خاصة العربيةَ وعلومها والقرآنَ وتفاسيرَه، فبلا لغة لا يمكن للعقل أن يستوعب المعاني ويفهم الدلالات، ومن ثَمّ يتذبذب التواصل السليم بين المخاطِب والمخاطَب، وهشاشة القاعدة اللغوية ولَّدت عند المستشرقين فهما قاصرا، وأحيانا سقيما لآيات القرآن الكريم، والواقع أن المستشرقين تضاربت مواقفهم وآراؤهم من هاجس اللغة الذي أرّقتهم كثيرا، فكانوا زُمرا:

زمرة منهم صرحوا بصعوبة فهم اللغة العربية، وعجزهم أمام تراكيبها وأساليبها، مثل المستشرق البريطاني (رونالد فيكتور بودلي) الذي اعترف بأن اللغة العربية كانت فوق طاقة فهمه، مما دفعه إلى الاعتماد على غيره من المستشرقين في فهمها، حيث يقول: "لقد حاولت أن أترجم الحوار العربي حرفيا، وببساطة كان الشعر العربي والبيان فوق طاقتي، واعتمدت في الآيات القرآنية على ترجمات (مارمادوك)، و(رودويل)"[1]، ومن المعلوم أنه لا يمكن لأحد أن يفسر القرآن الكريم بعيدا عن العربية التي نزل بها، وقد ذكر المستشرق (بودلي) في كتابه [الرسول حياة محمد] بأن مؤلفا ما كتب عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم، فكان من أسباب فشله في كتابه معرفته السطحية باللغة العربية، فقال عنه وهو ينتقده: "كان يعرف الكتب المقدسة معرفة رائعة، ويلمُّ باللغة العربية إلماما سطحيا؛ ولكنه كشف عن جهل فاضح،

[1] - بودلي، الرسول حياة محمد، ص 05.

فما كان يدري كيف كان يعيش محمد، ولا ما جاء به"[1]، فجهل هذا الكاتب باللغة العربية غيَّب عنه حقيقة الوحي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ومن كان هذا حاله، فهو عاجز عن فهم الخطاب الديني العربي.

ضعف إلمام المستشرقين باللغة العربيّة وإجادتهم لها نتج عنه قصورهم في إدراك كنهها والوقوف على معانيها، ومن أمثال هؤلاء (ساڤاري) في ترجمته للقرآن الكريم، التي تعرض لها إبراهيم عوض بالتحليل والنقد، ومن المآخذ على هذه الترجمة على شهرتها قصور صاحبها في فهم اللغة العربية، وعدم نطقه الكلمات العربية بطريقة سليمة، قال عن ترجمته: "وبرغم هذا لا يسعني إلا الاعتراف بأن أسلوب هذه الترجمة سلس وأنيق؛ لكن هذه السلاسة والأناقة لا يصاحبها سلامة الفهم ولا الدقة اللازمة في ترجمة كتاب كالقرآن هو الكتاب المقدس، إذ المترجم في كثير جدا جدا من الأحيان يكتفي بأداء المعنى أداء إجماليا، فينقل إلى القارئ المعنى الكلي؛ لكنه يغفل كثيرا من التفصيلات التي لا غنى عنها، فمثلا في ترجمة قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: 108]، يقول ما معناه بالعربية: "أتسألون رسولكم ما سأله اليهود من موسى"، فانظر كيف حذف من ترجمته عبارة "أم تريدون"، وترجم الفعل المبني للمجهول بمبني للمعلوم، وأضاف لفظة "اليهود" وهي ليست موجودة في النص كما أنه حوَّل "كما" إلى "ما"، وهذا كله يخل بالمعنى، لقد كان يستطيع أن يحافظ على الأصل في درج الترجمة، ثم يشرح في الهوامش ما فهمه هو من النص من تلقائه أو مما نقله أو مما نقله من كتب المفسرين"[2]، فهذا مثال من عشرات الأمثلة فيما يتعلق بالفهم القاصر لمعنى النص اللغوي، أما ما يتعلق بالنطق فالواقع أدهى وأمرّ، يقول إبراهيم عوض: "لاحظت أن المترجم لا ينطق الكلمات العربية نطقا سليما، وهذا واضح من الألفاظ والعبارات التي أداها بالحروف اللاتينية... وليس خطؤه في النطق مقصورا على الكلمات المفردة أو على أسماء الأعلام ... بل يشمل نطق جمل كاملة يشوّهها تشويها فظيعا، حتى إني لأتساءل: كيف يتسنى له بعد ذلك أن يفهم النص القرآني؟ إنه مثلا ينطق: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا.. ﴾ [الشمس: 01] على النحو الآتي: وَالشَّمْسِ وَضُحَيْها، وَالْقَمَرِ إذا تَلَيْها، وَالنَّهارِ إذا جَلَيْها، وَاللَّيْلِ إذا يِغْشَيْها، وَالسَّماءِ وَما بِيْنَيْها، وَالْلَّرْضِ وَما طَحَيْها، فتأمل كيف يُنَوِّنُ ما دخل عليه الألف واللام!، وتأمل كيف يقلب ألف (ضحاها) و(تلاها).. ياء ساكنة!، وتأمل كيف يغفل التضعيف في لام (جلاها)!، وتأمل كيف يكسر ياء (يغشاها)، وتأمل كيف يضيف ياء إلى (بناها)!، وكيف يضيف لَاماً أخرى بعد لام التعريف في الأرض!، وهذا كله فيما لا يتعدى سطرين، إنَّ كاتب مقدمة الترجمة يذكر أن المترجم قد أنفق شطرا من عمره مع المسلمين العرب في بلادهم يأخذ عنهم القرآن ونطقه، فهل هذه هي مقدرة مستشرق يتصدى لترجمة القرآن بعد أن خالط أتباع هذا القرآن وأصحاب اللغة التي نزل بها أعواما؟ تُرى أكان هذا المستشرق يحسن اللغة العربية؟ إن الأمر جد محير!"[3].

فالنطق السقيم للألفاظ والفهم العقيم للمعنى عند (ساڤاري) عصف بالترجمة الصحيحة للقرآن الكريم، ومن المعلوم أنه من حُرم الأصول حرم الوصول.

وزمرة ثانية من المستشرقين طفقوا يُلقون اللّوم على العربية نفسها، بأنها لغة مملّة وغير مفيدة ومتعبة، وهذا الادعاء في واقع الأمر ذمّ للمستشرقين؛ لأنهم يرون اللغة العربية متعبة، وذلك لجهلهم بخصائصها وتراكيبها، يقول محمد الحسيني في مقال له حول هذا الموضوع: "لكن الغريب أن بعض المستشرقين لا يعترف بهذا القصور، بل ويلقي اللوم على اللغة العربية وكتابها الأعظم القرآن الكريم؛ بسبب عدم إدراكهم لمكنونات اللغة العربية وأسرارها، ومن هؤلاء (أورنلد توينبي) الذي يحاول تعزية نفسه بجهله بالعربية من خلال الادعاء بأن اللغة العربية هي

(1) - المرجع نفسه، ص12.
(2) - إبراهيم عوض، المستشرقون والقرآن الكريم، ص 09-10.
(3) - المرجع نفسه، ص 12-13.

لغة دينية، مسوغا لنفسه جهله بها، وتبرز هذه النزعة بوضوح عند (كارليل)، الذي قال في كتابه [الأبطال]: "لا عجب إن قلتُ: إن الأوربي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء، فهو يقرأه كما يقرأ الجرائد، لا يزال يقطع في صفحاتها قفرا من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم؛ لكي يعثر خلال ذلك على كلمة مفيدة، أما العرب فيرونه عكس ذلك"[(1)].

وهذه الواقع الصادم "يعترف به المستشرق الفرنسي المعاصر (جاك بيرك) بأن محاولته ترجمة معاني القرآن الكريم ليست إلا محاولة لتفسير معاني القرآن الكريم؛ لأن الترجمة الحقيقية للنّص القرآني مستحيلة، فألفاظ وعبارات القرآن الكريم لها مدلولات ومؤشرات عميقة، ولا تستطيع اللغة القابلة أن تنقلها بكل ما تحتويه من معان ظاهرة وخافية"[(2)].

فهذا أيضا اعتراف واضح الدلالة من (جاك بيرك)، وهو من أشهر المترجمين للقرآن الكريم إلى الفرنسية، ومن أكثرهم إحاطة باللغة العربية حسب زعمه، يُدلي بهذا الصريح الخطير، من عدم مقدرة المستشرقين على الإحاطة الكافية بألفاظ ومعاني القرآن، وما قاله (جاك بيرك) وغيره في هذا الصدد أكد عليه مصطفى عبد الغني وهو يناقش الترجمة الشهيرة (لجاك بيرك) للقرآن الكريم، وقد بيَّن حجم الصعوبة التي واجهها هذا المستشرق الفرنسي، وهو يفتّش عن معاني الألفاظ في معاجم اللغة، قال مصطفى عبد الغني: "والملاحظ أن (جاك بيرك) كان يعود من آن لآخر للبحث عن معنى إحدى ألفاظ القرآن الكريم إلى مثل هذه القواميس أو المعاجم -يقصد قواميس المعجم التاريخي-، فينقل عنها دون التنبه إلى تغيّر السياق الزمني وبالتبعية التغاير في الفهم، فضلا عن أن القاموس لا يعطي المعاني النّصّية، بل مجرد دلالة الألفاظ، كما أنه كان يعتمد على فهمه لمفردات المعجم اللغوي العربي دون دراية كافية"[(3)].

يمكن أن نستفيد هنا في تأكيد صحة ما اعترف به المستشرقون، بأن ضعف فهم اللغة العربية، والسطحيةَ في تناولها أربكا الدراسات الاستشراقية القائمة على تفسير القرآن الكريم، وانعكست سلبياته في النتائج التي توصلوا إليها، بما خلص إليه الباحث عباس الزويني في دراسة له حول الاستشراق الألماني واللغة العربية، حيث أكد الباحث على أن التخلي عن دراسة العربية في فترة ما أثّر على نتاج الاستشراق الألماني، وكانت نتائجه وخيمة، فقال: "ويجب التنبيه على أنه في النصف الثاني من القرن العشرين انفصلت الدراسات الإسلامية للاستشراق الألماني عن فقه اللغة العربية، وهذا الفصل قد أضر بالدراسات الإسلامية؛ حيث إنه لا يمكن التعمق في الدراسات الإسلامية بدون معرفة اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية، فالدراسة المعمقة للعربية تعد شرطا لأي عمل استشراقي رصين، وانطوت بوفاة (بروكلمان) سنة 1956م مرحلة ذهبية للاستشراق الألماني، إذ عدل هذا الاستشراق من الموسوعية والتنوع إلى التخصص، وانتهى عدم اكتراثه بحاضر العالمين العربي والإسلامي وشؤونهما، والأدق أن يقال: إن الاستشراق الألماني ما انصرف عن تقاليده البحثية وموضوعاته التي يُؤثرها البتة؛ ولكنه خصص لها مساحة أقل من قبل، لسببين هما:

1/ الاحتكاك المباشر بالشعوب العربية أظهر حاجة إلى التواصل معها بلغتها الدارجة، وترتب على ذلك الابتعاد عن اللغة الفصحى شيئا فشيئا.

---

(1) - محمد طالب الحسيني، مقال، أخطاء المستشرقين في التفسير، 2017م.

(2) - علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق والقرآن الكريم، ص198.

(3) - مصطفى عبد الغني، ترجمة جاك بيرك للقرآن من القراءة إلى التفسير، ص132.

2/كان المستشرقون الألمان التقليديون متأثرين بالدرس اللغوي العربي، ثم بدأ التخفف من تأثيره؛ لظهور الجانب التعليمي في تأليفهم في النحو العربي"[1]، وهذا التحليل بالحجة والدليل والاعتراف بلسان القوم يلخص لنا نتيجة مهمة مفادها أنه كلما قل الإلمام باللغة زادت احتمالية الخطأ في الفهم عند المستشرقين.

زمرة ثالثة حاولوا أن يهوّنوا من شأن لغة القرآن، ويقللوا من قيمتها لينزلوها إلى مرتبة الشعر الجاهلي، أو بعبارة أوضح أرادوا خلع القداسة الدينية عنها بأن جعلوها لغة بشريّة محضة لا ترتقي إلى ذلك المستوى الذي كان يبهر الفصحاء، ويعجز البلغاء ممن نزل القرآن في زمنهم وبلغتهم، فكانت لغة القرآن عندهم محل نقد وتهوين وتقزيم، "ويزعم (أرنولد توينبي) أن اللغة العربية لغة دينية لا تصلح إلا للطقوس والشعائر كالصلاة، وتلاوة القرآن والدعاء"[2]، وهذا ادعاء باطل فارغ من الصحة، لأن اللغة العربية غزيرة الألفاظ واسعة التراكيب والاشتقاقات والأوزان، وهي أول لغات العالم من حيث عدد الألفاظ ومن حيث مقدرتها على استيعاب الشعر والنثر والمقاطع الموسيقية بما تحتويه من أوزان الشعر المعروفة والتراكيب الصرفية والمباني الصوتية، ولا يوجد ذلك في أي لغة من لغات العالم، وهي أكثر اللغات قدرة على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر والمكنونات لما تحتويه من معان ومرادفات وصور بيانية.

يقول الدكتور أحمد نصري مبيّنا خطورة هذه الزمرة من المستشرقين: "في إطار السعي الحثيث والدؤوب نحو صرف القرآن الكريم عن مصدره الإلهي الحكيم، حاول بعض المستشرقين الفرنسيين عند تعرضهم للغة القرآن أن يصوروها بصورة الأدب العادي، واجتهدوا في التنقيب عن مواطن التشابه والمماثلة بين لغة القرآن ولغة البشر، ورأوا أن لغة القرآن تشبه إلى حد بعيد لغة الشعر العربي القديم في إيقاعه ووزنه وقافيته، يقول المستشرق الفرنسي (إيدوارد مونتيه): "إن أسلوب القرآن أسلوب شعري مقفى، غير أن هذا الأسلوب الشعري ينحصر في السور المكية خصوصا القديمة جدا منها دون السور المدنية" [3]، لو كان ما قاله صحيحا لقاله من قبله أهل اللغة أنفسهم الذين رفضوا الدعوة المحمدية ومع ذلك اعتبروا لغة القرآن لغة غير عادية، ومكان لبشر أن يأتي بمثلها لذلك عجزوا أن يأتوا بمثلها.

وبسبب احتقارهم للغة القرآن والتقليل من شانها، لم يستشعروا ذلك الذوق الفريد الذي يميز لغة القرآن عن غيرها، وعليه لا يمكن للمستشرق أن يعطي تلك الصبغة حقها عند تعرضه لتفسير القرآن الكريم، فيتهم لغة القرآن بدل أن يتهم ذاته القاصرة عن فهم الخطاب الإلهي للبشر، يقول عبد الرزاق هرماس: "والذي يتتبع كتابات المستشرقين في هذا الموضوع يقف على تصورهم الخاص الذي دافعوا عنه لتأكيد بشرية الخطاب القرآني، لذلك حين كتبوا عن القرآن نظروا إليه باعتبار أنه أثر أدبي محض، وقد وُجد منهم من اعتبره دون التراث الأدبي العربي والعياذ بالله"[4].

ثانيا: القياس اللغوي مع وجود الفارق:

مما أزم مشكلة التواصل اللغوي عند الغرب هو قياسهم لغة العرب على لغات العجم، ومن المسلَّم به ابتداء ذلك البون الشاسع بين العربية وغيرها من لغات العالم، فمثلا ترجمة المرادفات القرآنية حرفيا إلى لهجات أخرى دون مراعاة معانيها الشرعية أو العرفية يغيّر المعنى تماما، ومن أمثلة ذلك ترجمة (جاك بيرك) للفظة (المسجد) إلى (المعبد الكنسي)، وهذا تأثّر واضح بالعقيدة واللغة الأم عند المستشرقين، وتفصيل هذا المثال: "أن لفظة (المسجد) يقابلها في اللغة الفرنسية كلمة (Mosquee)، وهي الكلمة اللاتينية التي يشترك أصلها بين كثير من اللغات

---

[1] – عباس الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص26-27.

[2] – أحمد محمد جمال، اللغة العربية لسان وكيان، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الأول، 1395هـ، ص97.

[3] – أحمد نصري، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، ص137.

[4] – عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس، تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين، مجلة البحوث الإسلامية، العدد 67، 1423هـ، ص 108.

الأوروبية المنحدرة عن اللاتينية، مثل (mosque) في الإنجليزية، و(Moschee) في اللأمانية، و(mezquita) في الإسبانية، إلا أن (جاك برك) آثر أن يترجم لفظة (المسجد) بكلمة (Sanctuaire)، وقد يترجمها أحيانا بكلمة (Oratoire)، ومن المعلوم أن كلمة (Sanctuaire) تعني (المعبد الكنسي)، وقد تعني (الجزء من الكنيسة حول المذبح الذي تتم فيه المراسم الطقوسية)، أما كلمة (Oratoire) فتعني (المصلى في كنيسة صغيرة)، ولا شك أن قارئ الترجمة إذا كان مسْلماً فإنه لن يفهم معنى المسجد مكاناً لإقامة الصلوات من تلك الترجمات الغربية، أما إذا كان القارئ غير مسلم فإنه لن يفهم من اللفظتين الفرنسيتين سوى ما يوافق النظرة النصرانية إلى خلوة الرهبان في أديرتهم وكنائسهم، وهكذا يمكن القوال بأنه كان ثمة تأثير قوي لثقافة (جاك بيرك) الدينية النصرانية في ترجمته للفظة (مسجد) إلى اللغة الفرنسية"[(1)].

فهذا أحد أسباب الخطأ عند المستشرقين، إنها النزعة العقدية والصبغة الثقافة المحلية واللغة الأم، يقول طالب الحسيني: "ومما عقّد فهم المستشرقين هو قياسهم لتراكيب اللغة العربية على لغاتهم ولاسيما الانجليزية، ومن المفيد الإشارة إلى بعض الاختلافات القائمة بين اللغتين العربية والانجليزية؛ لأن تركيب الجملة العربية يختلف بطرق كثيرة عن الجملة الانجليزية؛ لذلك يمكن أن تظهر السماجة بوضوح إذا ترجمت الكلمة حرفيا[2]" .

بناء على ما تقدم يمكن القول: إن القياس مع وجود الفوارق الكبيرة بين اللغتين العربية وغيرها نتائجه تكون خاطئة في غالب الأحيان، وهذا ما أكده الباحث عباس الزويني في دراسته لموضوع اللغة عند المستشرقين الألمان، عندما قال: "حتى صارت العربية عند المعاصرين -يقصد المستشرقين الألمان- تُقَعَّد على أساس النظرية الغربية التقليدية ذات الأصل اليوناني، في العرض والوصف، وبدت دراسة العربية تُعْوِزُها الدقة، وغريبة عما اعتاد عليه المستشرقون الألمان في وصف لغتهم الألمانية"[(3)].

ثالثا: القصور في الإلمام بأسباب النزول:

أسباب النزول لها أثر كبير في فهم كثير من نصوص القرآن الكريم، ولا غنى للمفسر عنها، وإذا تجاهلها زاغ عن الحق، ووقع في الخطأ بلا ريب، وهذا ما حصل فعلا للمستشرقين عندما درسوا تفسير القرآن الكريم بعيدا عن الواقع الاجتماعي الذي نزل فيه، ومما أفشل كثيرا من جهودهم التفسيرية قياسهم حقائق القرآن الكريم التي تكلمت عن بعض العادات العربية على واقع الغرب وعاداته، وراحوا ينتقدون هذه العادات، وفق ما يمليه الواقع الاجتماعي الغربي، وهذا الاتجاه في تفسير القرآن الكريم لا يُقبل بأي حال، فللتفسير قواعده وأصوله، وهذا ما نبّه عليه المستشرق البريطاني (بودلي)، ولفت إليه في مقدمة كتابه [الرسول حياة محمد] حيث أكد على أنه لابد من الإحاطة بالواقع الجغرافي وإدراك العادات ونمط العيش الذي عاشه محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه في تلك الحقبة؛ لفهم سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، ويذْكر (بودلي) عن نفسه أنه يجد سهولة في استرجاع ذكريات الثلاثة عشر قرنا الماضية؛ لأنه عاش جزءا من تلك التجربة في بلاد صحراوية تقارب في شكلها ومضمونها تلك البيئة التي عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لذلك يقول: بأن أفضل الكُتَّاب الغربيين يجدون صعوبة في الإلمام بذلك الواقع؛ لأنهم عاشوا في أوربا وأمريكا، وواقعها وعاداتها تختلف عن عادات العرب، ولا يمكن الوصول إلى الحقيقة بهذه الطريقة، فقال ما فحواه: "لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذي مرّ عليه ثلاثة عشر قرنا بالنسبة إليَّ أيسر من وصفِ جامعيٍ من أكسفورد الحياةَ في عصر إليزابيث، وأبسطَ من كتابة مؤرخ أمريكي عن الولايات المتحدة، وأقلَّ صعوبة عليَّ ممن أرَّخوا سيرة

(1) – حسن بن إدريس عزوزي، ملاحظات على ترجمة معاني القرآن الكريم لجاك بيرك، ص 35.
(2) – محمد طالب الحسيني، أخطاء المستشرقين في التفسير، 2017م.
(3) – عباس الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص27.

محمد، كان أغلب هؤلاء الكتاب يمتازون عني بالأسلوب، وسَعة الإطلاع، وبالسرد الفني للسيرة، ولكنهم كان ينقصهم جميعا ما أملك؛ لأنهم سواء أكانوا شرقيين أم غربيين، لم يعش منهم أحد نفس الحياة التي عاشها محمد وأتباعه في بلاد العرب، في أوائل القرن السابع، والتي عشتها أنا، في خلال النصف الأول من القرن العشرين، فلا الأسيويون ولا الأوربيون ولا الأمريكيون الذين كتبوا عن محمد، قد تغلغلوا في تلك البقاع المنعزلة من صحراء العرب، حيث جاء محمد بالإسلام إلى الوجود، لم يقم الغربيون بالتجربة، لأنهم ما كانوا ليُخضِعوا أنفسهم لحياة العرب، عَرفوا أنهم ما لم يعيشوا عيشة البدو عدة سنين، فلن يخرجوا بشيء يستحق التجربة المتعبة"[1].

ثُمَّ ذكر مثالا يوضح فيه أن الجهل بالواقع الاجتماعي والبيئة والعادات عاقبته الخطأ في إدراك حقيقة الواقع الاجتماعي العربي ولغته، فقال: "قرأتُ ما كتبه مؤلف عن محمد، فكان من الجليّ أنه لم يغادر نيوإنجلد أبدا، حيث كان يعمل راعي كنيسة، كانت آسيا وإفريقية أبعد عنه من الجنة والنار، وبرغم ذلك سوَّد ثلاثمائة صفحة، استعرض خلالها حياة الرسول استعراضا وثيقا، كان أسلوبه مشرقا، وكان يعرف الكتب المقدسة معرفة رائعة ويُلمُّ باللغة العربية إلماما سطحيا، ولكنه كشف عن جهل فاضح، فما كان يدري كيف كان يعيش محمد، ولا ما جاء به"[2].

المبحث الثاني: غياب الموضوعية العلمية، والتشكيك المستمر:

أولا: غياب الموضوعية العلمية والتعصب:

الموضوعية والتجرد من الهوى والتعصب، وترك الانتماءات المذهبية والحزبية جانبا من أهم صفات البحث العلمي، ومن أهم خصال الباحث الناجح؛ ولكن هذه الصفات تكاد تكون منعدمة عند كثير من المستشرقين الناشطين في حقل الدراسات القرآنية، ويبرز مقتهم الشديد للتراث العربي والإسلامي خاصة ذلك المتعلق بالقرآن الكريم، وتتجلى عصبيتهم بوضوح في كتاباتهم عن تعاليم الدين وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا التزوير الممنهج للأسف يُقدِّم صورة سيئة عن الإسلام لدى الغرب الذين لا ينظرون إلى الإسلام إلا بأعيُن المستشرقين وكتاباتهم فقط، ويرسم لهم صورة مشوهة للقرآن الكريم.

يظهر التعصب المقيت لكل من اطلع على نتاجهم الفكري والأدبي، يقول الدكتور وجيه حمد عبدالرحمن: "ويلَاحظ أن معظم الترجمات الاستشراقية ترمي إلى ترسيخ مفاهيم خاطئةٍ حول القرآن الكريم، بالزعم بأنه من صنع البشر وتجريده من صفته السماوية، والادعاء بأن القرآن يخاطب العرب دون سواهم من البشر بهدف التقليل من عالمية الرسالة الإسلامية، كما أن بعض المستشرقين عمد إلى التلاعب بترتيب السور القرآنية كما فعل (رودول وبل)، أما ما قام به اليهودي (ن. ج. داود) في كتابه الذي سمّاه: [القرآن]، وأصدره عام 1956م، فإنه لم يتبع ترتيب سور القرآن الكريم المأثور في الترجمة، بل اخترع من عنده ترتيباً حسب زعمه الباطل بأن للقرآن نغمة شعرية، ولكن هذه النغمة الشعرية توجد في بعض السور والآيات أكثر من بعض السور الأخرى، فقدّم السور التي زعمها جهلاً منه وعناداً أنها أكثر شعرية، وصنف لها درجات من الغناء، فوضع بعضها في الدرجة الأولى وبعضها في الدرجة الثانية، وهكذا صنف للسور درجات من الغناء والشعر، فيبدأ بسورة الزلزلة تليها سورة الانفطار وتعقبها سورة التكوير ثم سورة الإنسان، وعمد إلى إسقاط أرقام الآيات فضلاً عن النص العربي للقرآن الكريم؛ ليكون قارئه بعيداً عن الأصل، وليكون عمله هذا المرجع الوحيد لمن يريد معرفة القرآن ومعنى الآيات، وهذه الترهات ليست بمستغربة من قوم لم يشرح الله صدورهم للإسلام"[3].

[1] – بودلي، الرسول حياة محمد، ص 11-12.

[2] – المرجع نفسه، ص12.

[3] – وجيه حمد عبدالرحمن، وقفة مع بعض الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، ص 12-13.

إن هذا العبث البيّن ميل عظيم عن الموضوعية، لقد تصرَّف هذا المستشرق اليهودي في النص الأصلي، والأمانة العلمية تملي عليه أن يفسّر النص كما هو بلا زيادة ولا نقصان، ولكنه عمد إلى تبديل مواضع السور وتحريف الآيات، وتصنيف السور حسب قانون الشعر، ومقامات الموسيقى، فماذا يُنتظر منه بعد ذلك في ساحة العمل الاستشراقي سوى أن القرآن مقطوعة موسيقية كُتبت قبل قرون.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا اتهام المستشرق (بودلي) في مقدمة كتابه [الرسول حياة محمد] النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يناقض نفسه، وأنه ذو نفسية متقلّبة، وصاحب فكر؛ ليرسخ فكرة الوحي النفسي بأسلوب التورية، يقول (بودلي): "وهذا الكتاب ليس مجموعة أحاديث أو مجموعة تقارير يفترض فيها أن محمدا قد قالها، فهي نفس الآيات التي أملاها بنفسه يوما بعد يوم، وشهرا بعد شهر خلال حياته، إنه انعكاس هذا الفكر الثاقب، وهو أحيانا غير فني، ويناقض نفسه، وهو غالبا ملهم وشاعري"[1].

وأكد الدكتور عبد الراضي بن محمد عبد المحسن، في كتابه: [مناهج المستشرقين في ترجمات معاني القرآن الكريم] أن عدم اعتماد مناهج البحث العلمي السليمة قدمت ترجمة خاطئة للقرآن الكريم، حيث قال: "حالت الدوافع الاستشراقية، وضعف العداد اللغوي، والجهل المعرفي بالإسلام، دون إنجاز المستشرقين ترجمة أمينة وافية لمعاني القرآن الكريم، فالأمر المشترك في جميع الترجمات التي كتبها المستشرقون عدم فهمهم أو عدم محاولتهم تفهم المعاني القرآنية، وعدم اعتمادهم مناهج البحث العلمي للموضوع لتقرير الحقائق؛ لأن مقاصدهم كانت إبعاد بني جلدتهم عن القرآن؛ للحيلولة دون فاعلية تأثيره في النفوس، ولم يجد المستشرقون أفضل من ترجمة القرآن الكريم وسيلة لتشويه نصه، ولما استشعروا عدم كفاية تشويه النص أكملوا ما يريدون بالملاحظات والحواشي التي لم تسعفهم، فأوسعوا الكلم في المقدمات والمداخل، لهذا فإن للترجمات الاستشراقية ذات النص المشوّه والحواشي المغرضة والمقدمات الجدلية آثاراً بعيدة المدى، شديدة الخطر، وتتمثل في بعدين يؤلفان جسراً عملياً لتحقيق الأهداف الاستشراقية من وراء ترجمة القرآن الكريم، وهما: **الأول**: إبعاد الناس عن المعاني العظيمة والقيم السامية في القرآن الكريم، **الثاني**: تعميق المفاهيم المغلوطة عن الإسلام"[2].

أما التعصب: هو شعور داخلي يجعل المستشرقين يرون أنفسهم على حق ويرون غيرهم على باطل، وقد ظهر هذا الشعور في صورة ممارسات ومواقف انطوت على احتقار الآخرين والتهوين من شأنهم، وعدم الاعتراف بم كما دفعهم التعصب المقيت إلى أخذ مواقف دون تمحيص بسبب الغِيرة أو الحماس مفرط لما هم عليه.

كان من نتائج التصبب والتعنت أنهم راموا تحريف النصوص، وتكريس الشبه والأباطيل لتصير مسلماتٍ عند قارئيها، يتبعون في ذلك المثل القائل: "اكذب اكذب حتى تُصَدَّق"، وذلك باعتراف المستشرقين أنفسهم، وفيما يلي مثال مصدق لما قرَّرناه قبل قليل، يقول المستشرق (بودلي) في كتابه [الرسول حياة محمد]: " لم يبدأ سوء فهم المسيحيين للإسلام حتى أواخر أيام محمد، وقد بدأ في صورة جدية في الحروب الأولى التي شنها الصليبيون، وقد ازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين، حتى إن لفظة (محمد) أصبحت بمعنى الكفر بالله، وتطورت لفظة (المحمدية) في أذهان معاصري شكسبير، حتى أصبحت بمعنى أيَّ ديانة مزيفة، وعلى الأخص الديانة التي تعبد الأصنام، وأصبحت لفظة (محمد Mammets) تستعمل بمعنى (الأصنام)، واشتقت كلمة (Mahomerie)، ثم كلمة (Mummery) بمعنى (مجنون) من نفس المصدر"[3]، فإذا كان هذا تحريفهم لكلمة واحدة فكيف الحال بباقي كلمات القرآن الكريم؟.

ثالثا: التشكيك المتوارث:

[1] – بودلي، الرسول حياة محمد، ص08.

[2] – عبد الراضي بن محمد عبد المحسن، مناهج المستشرقين في ترجمات معاني القرآن الكريم، ص 48-50، و62.

[3] – بودلي، الرسول حياة محمد، ص 13..

التشكيك المتوارث في كتابات المستشرقين أذكى جذوة نار غياب الموضوعية، فأتى لهيبها على كثير من المسلمات والثوابت القرآنية لتصبح هشيما تذروه الرياح، لأن البيئة التي نشأ فيها المستشرقون أساسها عدم الثقة والتشكيك في كل شيء حتى فيما هو مقدس أو مسلَّم به، وذلك يُعدُّ من دوافع البحث عندهم؛ إلا أن التشكيك الزائد والمستمر خلَّف ركاما من التناقضات والهرطقات والأخطاء لاسيما في تفسير القرآن الكريم، فتشكيكهم في مصدر الوحي، وتجريده من قُدْسيته ومصداقيته ووضعه تحت مجهر النَّقد حال دون وصولهم إلى نتائج سليمة، وأوقعهم في الخطأ والتناقض.

ذلك ما كان يُقَعِّد له المستشرق (بودلي) كغيره من المستشرقين في مقدمة كتابه [الرسول حياة محمد]، فهو يرى التشكيك وإعادة النظر أثناء الدراسة أمر لا مندوحة عنه، يقول (بودلي): "وإني أودّ أن أقول لمن يبحث عما هو تاريخي في حياة محمد وما هو مروي إن في جميع قصص الرجال العظام الكثير من الرواية التي لا يمكن إثباتها ولا يمكن إنكارها، وإنه من الصعب في بعض الأحيان كيف أصبحت الحقيقة حقيقة وكيف صارت الرواية رواية؟، وزيادة على ذلك هناك في جميع الديانات كثير من الأمور التي ليست رواية فحسب بل خرافة، إن رجال الدين لا يطرحون جانبا الحوادث غير الثابتة التي يُعْوِزُها البرهان، وإنني وإن كنتُ في الأصل أحافظ على الحقيقة، إلا أنني ما كنت لأشوه نسق العبارة بإضافة (وقيل) حينما أكون غير متحقق أنني قد ابتعدت عن التاريخ"[1].

لا غرابة أن يقول مثل هذا التصريح مستشرق لا يؤمن إلا بما هو ظاهر أمامه، فهم قوم لم يشرح الله صدورهم للإيمان بالغيب، لذا يشككون في كل ما هو غيبي، أما نحن المسلمين فنؤمن بكل ما جاءنا من عند الله، وإن لم نره، لأننا مؤمنون بالله مصدقون لما يقول سبحانه.

المبحث الثالث: دعاوى التجديد في ضوء المناهج الحديثة:

أولا: اختلاف مفهوم التجديد عند العلماء المسلمين والمستشرقين:

التجديد الذي يعنيه علماء التراث: "هو مواكبة التفسير لحاجات العصر وإصلاحها بحيث لا يغدو التفسير حبيس الأوراق والكتب، وإنما ينطلق لصلاح واقع الناس وتلبية حاجاتهم الدينية والنفسية"[2]، والتجديد المطلوب في التفسير خصوصا يتطلب إعادة النظر في محتوى مواد التفسير ومقرراته ومناهجه وكيفية أدائها لوظيفتها الاجتماعية والنفسية والفكرية، وتفعيل هذا الأداء أو بث الروح فيه من جديد، أما عند المستشرقين يعني التجديد عندهم بصورة عامة إعادة النظر في تفسير نصوص القرآن والسنة وفق ما تمليه النظريات والمناهج الغربية بداعي أن هذه المناهج هي التي تسيّر كل مناحي الحياة حتى في الجانب التعليمي عند المسلمين، "فظهرت دعوات للتجديد كانت أقرب ما تكون للتغريب والطعن في أصول الدين، وتفريغه من محتواه، والتجديد عند أدعيائه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم التجديد عند الغرب، وكان أحد أسباب تشويه دلالات التجديد أنْ ربط بينه وبين حركة التجديد الديني عند الغرب الذي ظهر في بيئة غير البيئة الإسلامية، لها ظروفها وأحكامها الخاصة، لذلك حاول من يسمون بالمثقفين العرب ممن تربوا على الثقافة الغربية، وتشربوا بأفكار المستشرقين النزول لميادين أحكام الشريعة تفسيراً وبياناً وتحديداً، بغض النظر عن الظروف والوقائع المختلفة بين الحضارتين؛ ويحاول كثير من أدعياء التجديد استنباتها لدى المسلمين، ومن ثَمَّ فرض أفكار مستعارة ومواقف مستوردة بزعم التجديد والإصلاح"[3].

---

(1) - المرجع نفسه، ص 05-06

(2) - جمال أبو حسان، التجديد في التفسير مادة ومنهجا، ص04.

(3) - دلال البقيلي السلمي، التجديد في التفسير في العصر الحديث مفهومه وضوابطه واتجاهاته، ص39.

ومن أهم مرتكزات وخصائص التجديد الذي ينادي به الغرب وعلى رأسهم المستشرقون: "الأخذ بالأساليب الغربية في مناهج دراسة التراث، وبالأخص في دراسة نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، بحجة أن مناهج الأقدمين عفا عليها الزمن، وأنها لا تصلح للدراسة العلمية المقننة في العصر الحاضر؛ ولهذا استعيرت المناهج الغربية التي نشأت في ظروف معادية للدين لدراسة الدين الإسلامي، ولتفسير كلام الله تعالى"[1].

ثانيا: إخضاع تفسير القرآن الكريم للمناهج الوضعية الغربية:

المناهج هي تلك الآراء والأفكار التي ترتبط بفلسفات وعقائد وأيديولوجيَّات، وتمثِّل وجهات نظرٍ عن الكون والإنسان والحياة والإله، تصدرُ عن حضارة الآخر، وتعبِّر عنه بطبيعة الحال، تطورت وتبلورت مع الوقت لتصبح مع كثرة تداولها والعمل بها قوانين تحكم مجالات شتى في حقول العلم، وتنقد ما يصدر في المجالات العلمية المختلفة، ويعبر عنها بالمناهج.

لقد "حرص لفيف من المستشرقين ابتداء من منتصف القرن العشرين على الدعوة إلى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية التي طبقت في مجال دراسة النصوص المسيحية حتى يفتحوا المجال للتخلص من أصول وقواعد علم التفسير التي تضبط فهم القرآن والاستنباط منه، وبذلك يصلون إلى الطعن في تفسير القرآن بدعوى نقده، ويدخل ضمن هذا النقد التطاول على ما صح منه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولو نقل بأوثق الأسانيد"[(2)].

ومن الشواهد على ذلك ما اشتهر به المستشرق (مونتغمري واط)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة لندن، وهو من أحدث الذين كتبوا في السيرة النبوية من المستشرقين، من إخضاع أبحاثه الإسلامية للنظريات الحديثة، "فهو مثلا يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ محمدًا صادق، لأنه يُخَيَّلُ إليه أنه بُعِثَ نَبِيًّا، وأنه يحمل رسالة، وأنه يُوحَى إليه»، هذا المستشرق، لأنه يعيش في قرن تبلورت فيه علوم جديدة لم تكن موجودة عند المستشرقين في القرن التاسع عشر، أو القرن الثامن عشر، أو القرن السابع عشر، أو مع البدايات الاستشراقية، مثل علم النفس التحليلي، وعلم الاجتماع والعلوم الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، لذلك نجد أَنَّ تقنية البحث عند (مونتغمري واط)، تختلف عن التقنية القديمة من حيث أنه يمزج دراسته بهذه الألوان الجديدة من العلم، وهذا قد يولد قناعة عند بعض القارئين مِمَّنْ لا يعرفون السيرة النبوية معرفة دقيقة، أو مِمَّنْ لا يعرفون الإسلام بصورة تفصيلية، فهو يزعم أَنَّ عملية الوحي إنما هي استشعار داخلي ولكن بصدق، فهو لا يشكك بصدق شعور النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنبوة، ولكنه يظن أَنَّ هذا إنما هو استشعار داخلي وقناعة ذاتية دون أَنْ يكون هناك شيء خارجي اسمه الوحي، وعندما يأتي إلى قضية الاختلاف بين أسلوب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديثه وبين أسلوب القرآن المتميز هنا يلجأ إلى علم النفس التحليلي، فيقول: إن النبي عندما يقرأ القرآن على الناس يكون في حال يضعف فيها الوعي الخارجي ويعمل وينشط اللاشعور أو العقل الباطن، فعندئذ يكون الأسلوب مُغَايِرًا لأسلوبه عندما يكون في يقظته العقلية الكاملة أو وعيه الظاهر الكامل، ومن هنا يأتي أسلوب الحديث مُغَايِرًا لأسلوب القرآن"[(3)].

وما هذا التحليل والتأصيل في ضوء المناهج الحديثة إلا من أجل إثبات حقيقة الوحي النفسي، وبشرية القرآن التي يدين بها جل المستشرقين، فتأمل كيف جنت هذه المناهج على المسلمات الشرعية تحت راية التجديد والتحديث.

(1) – المرجع نفسه، ص40.

(2) – عبد الرزاق هرماس، دعوى فهم القرآن في ضوء مناهج العلوم الإنسانية الغربية، ص 19-20.

(3) – أكرم بن ضياء العمري، موقف الاستشراق من السُنَّة والسّيرة النّبوية، ص 60-61.

وممن تبنى فكرة إقحام المناهج الحديثة في حقل العلوم الإسلامية بحجة التجديد، وانتهج مناهج من سبقه، وراح يؤصّل لها، (جاك بيرك) في ترجمته المشهورة القرآن الكريم، التي تعرض لها مصطفى عبد الغني بالنقد وبين عَوَارها وقوض أصولها؛ لأنها دعوى زعزعة وتفنيد، لا منهج تحديث وتجديد، قال مصطفى عبد الغني في معرض حديثه عن أسباب تعثّر (جاك بيرك) في ترجمته مع ما يملكه من خبرة ودراية باللغة العربية: "إن مراجعة ترجمة (جاك بيرك) هنا تشير إلى أنه مثل عدد من المستشرقين رغم استخدامه لعدد من المناهج الغربية الجديدة على النص فإنه مازال يحمل رواسب تاريخية واجتماعية خاصة في التفسير أكثر من محاولة صارمة في المنهج، لقد ردد كثيرا خاصة عقب صدور الطبعة الأولى من القرآن الكريم، أنه يعتمد على البحوث اللغوية الجديدة التي يطلق عليها (البلاغة الجديدة)، ويردد في مرات كثيرة أخرى أنه حاول أن يلتمس علم المنطق والرموز والعلامات والصوتيات ثم إنه استعان كما يردد بنتائج البحوث اللغوية الجديدة، غير أن التمهل أكثر عند هذه المناهج وغيرها ترينا أنه لم يستطع أن يبرأ من خطأ التفسير.

نحن على سبيل المثال أمام خطأ في رؤية المفرد، فالمنهج الفيولولوجي على سبيل المثال معناه أنه يجب أن ندرس كل كلمة تأتي في الوثيقة (= قرآن) أي البحث عن الألفاظ في معناها الجاري في زمانها، أي بمعنى آخر العودة لفهم ألفاظ القرآن الكريم ومعانيها في زمن نزول القرآن، وأسباب التنزيل وما إلى ذلك، ومع هذا فإننا لانعدم لديه الخروج على هذا في بعض الأحيان.

إن (بيرك) لا يربط في كثير من الأحيان بين معنى اللفظة في سياقها الزمني ومعناها بعد أكثر من 1400 عام على نزولها، وهو وإن حاول ذلك باجتهاد يخلو من سوء النية، فإنه لا يخلو من غفلة لا يحسد عليها، وكما يلاحظ، فإن استخدام الألفاظ هنا لا يراعي دلالة الزمن الذي أنزلت فيه.

إن هذا لا يعني عدم وعيه بمناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة التي يوليها اهتماما كبيرا، وإنما كثيرا ما يعود إلى هذا وغيره بشكل لا يصلح بالقطع لنص مقدس مثل القرآن الكريم ومجتمعه في ذلك الزمن البعيد، والأكثر من هذا أننا نستطيع أن نقول إن بعض هذه المناهج التي تستخدم هنا يمكن أن تضع بين أيدينا بعض التفسيرات، لكنها بالقطع لا تعطينا التفسيرات النموذجية لنص مقدس.

إن القراءة المقبولة بالشكل المنهجي هنا لابد أن يكون لها عدة شروط محددة، والغريب أنه حين يذكر في كتاباته النظرية في تنزيل القرآن الكريم أو محاضراته أنه يستخدم العديد من المناهج أو الطبقات من المعاني، لا يلبث أن يعود ليعترف في أكثر من موضع بأمرين اثنين: أن هذه الطبقات تمثل صعوبة عند نقل النص القرآني إلى اللغة الفرنسية، ناهيك عن أن اللغة الفرنسية ليست غنية بالمفردات مثل اللغة العربية، وإن كانت غنية بالتراكيب الأسلوبية"[(1)].

فكلما أقحمت مثل هذه المناهج المستحدثة في مجال علوم الدين ارتبكت النتائج، واختلطت المفاهيم، وتزيفت الوقائع، وتشوهت الصورة الحقيقة للدين في نظر القارئين خاصة الغربيين منهم، لذلك كنت المناهج الفلسفية والنفسية وبالا، وبلاء على تراث المسلمين.

---

(1) – مصطفى عبد الغني، ترجمة جاك بيرك القرآن من القراءة إلى التفسير، ص 130-131.

خاتمة:

مما سبق طرحه ومناقشته يمكن استخلاص بعض النتائج المتعلقة بتفسير المستشرقين للقرآن الكريم:

1- ضعف اللغة العربية عند المستشرقين، وعدم الإلمام بقواعد التفسير، حال دون تفسير صحيح للقرآن الكريم، وكان ذلك من أكثر أسباب الخطأ في فهم القرآن الكريم فهما صحيحا.

2- "تجربة المناهج الغربية في تأويل القرآن الكريم كانت غالباً فاشلة؛ بسبب الخلفيات الاعتقادية التي جعلت من تلك المناهج مجرّد أدوات للدعوة إليها، فأساءت كثيراً لها، وحجبت المسلمين عن الاستفادة منها، فهي مهووسة بعقائدها العلمانية المتطرفة، وفي المقابل كان تقييم المناهج الغربية وجدواها في دراسة القرآن الكريم دائماً غير موضوعي؛ وهذا ما يبرر الحساسية والخوف الدائم والمستمر من استخدام تلك المناهج في دراسة القرآن الكريم؛ إذ يُنظر إليها تلقائياً بأنها رغبة علمانية وليست علمية"[1].

3- دوافع التجديد في تفسر القرآن ودعاوى نقد التفسير وفق المناهج الغربية دون النظر إلى قداسة القرآن وغض الطرف عن مكانته الشرعية وسع الشرخ وزاد من حجم الأخطاء في التفسير.

4- كان لغياب الموضوعية وبروز التعصب والخلفيات الإيديولوجية أثر سيء في فهم القرآن فهم سليما.

توصيات البحث:

مع كل تلك الدعوات الاستشراقية لفهم القرآن الكريم وتفسيره في ضوء قواعد والمناهج الغربية الوضعية ما زالت تلك الأماني بعيدة لم تتحقق، ما لم تذعن تلك الأساليب التي يفسرون بها كتاب الله لقواعد التفسير، فعلى المستشرقين أن يتبعوا المناهج الشرعية المألوفة، ويتركوا الأطماع ويتجردوا من النزعات المقيتة، ويضعوا أمامهم القرآن الكريم وسيلة متجددة العطاء لخدمة البشرية وإصلاح شؤونها في شتى الميادين الدينية والدنيوية، وعليهم أن يدركوا أن كل محاولاتهم ستبوء بالفشل، إذا بقي تفسيرهم للقرآن الكريم يعتمد على النظريات والفرضيات، والمناهج الوضعية، وعلى المسلمين ألا يبقوا مكتوفي الأيدي لا يحركون ساكنا، بل يجب أن يسخروا ألسنتهم وأقلامهم، لنسف كل الشبهات لرد كل الافتراءات وأن يبنوا لطلبة العلم كيف يفكر المستشرقون وكيف يكتبون ليكونوا على بينة من أمرهم.

قائمة المراجع:

01- إبراهيم عوض، **المستشرقون والقرآن الكريم**، مصر، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2003م، 1423هـ.

02- أحمد محمد جمال، **اللغة العربية لسان وكيان**، مجلة البحوث الإسلامية، السعودية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد 01، 1395هـ.

03- أحمد نصري، **آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم**، المغرب، الرباط، دار القلم، ط1، 2009م.

04- أكرم بن ضياء العمري، **موقف الاستشراق من السُنَّة والسّيرة النّبوية**، السعودية، المدينة المنورة، كلية الدعوة، ط1، دت.

05- جمال أبو حسان، **التجديد في التفسير مادة ومنهجا**، بحث مقدم لأحد المؤتمرات العلمية، موقع رياض العلم، 2011م.

---

[1] - عبد الرحمن الحاج إبراهيم، المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله، بحث منشور على موقع الإسلام ويب، 20-06-2006م.

06- حسن بن إدريس عزوزي، **ملاحظات على ترجمة معاني القرآن الكريم لجاك بيرك**، بحث مقدم في ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، جمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1422هـ.

07- دلال البقيلي السلمي، **التجديد في التفسير في العصر الحديث مفهومه وضوابطه واتجاهاته**، رسالة دكتوراه، إشراف أمين عطية باشا، السعودية، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، شعبة التفسير وعلوم القرآن، 2014م-1435هـ.

08- رونالد فيكتور بودلي، **الرسول حياة محمد**، ترجمة محمد محمد فرج، مصر، مكتبة فجالة، ط1، دت.

09- عباس حسن الجمل الزويني، **البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان**، رسالة ماجستير، إشراف محمد غافل الشريفي، جامعة الكوفة، كلية الآداب، 2010م-1431هـ.

10- عبد الراضي بن محمد عبد المحسن، **مناهج المستشرقين في ترجمات معاني القرآن الكريم**، بحث مقدم إلى ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1422هـ.

11- عبد الرحمن الحاج إبراهيم، **المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله**، بحث منشور على موقع الإسلام ويب، 20-06-2006م.

12- عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس، **تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين**، مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد 67، 1423هـ.

13- عبد الرزاق هرماس، **القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب**، المغرب، بحث مقدم لجامعة القاضي عياض، دت.

14- عبد الرزاق هرماس، **دعوى فهم القرآن في ضوء مناهج العلوم الإنسانية الغربية**، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، 2013م-1434هـ.

15- علي بن إبراهيم النملة، **الاستشراق والقرآن الكريم**، مجلة الدراسات القرآنية، العدد 03، دت.

16- محمد طالب الحسيني، **أخطاء المستشرقين في التفسير**، مقال منشور موقع جامعة بابل، بتاريخ: 26-07- 2017م.

17 مصطفى عبد الغني، **ترجمة جاك بيرك للقرآن من القراءة إلى التفسير**، مجلة دار الاجتهاد، لبنان، بيروت، العدد 49، 2001م-1421هـ.

18- وجيه حمد عبدالرحمن، **وقفة مع بعض الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم**، السعودية، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، دت.